فتى الرمّان

محمد علي شمس الدين

القصيدة مهداة إلى الشهيد الدكتور حكمت الأمين، فتى قرية كفررمّان الجنوبيّة، الذي استشهد في إحدى غارات الطيران الإسرائيلي على مستوصف تلّة الرميلة حيث كان الطبيب يقوم بعمله الإنساني فيه.

قُمْ تأمّلْ
كُلُّ من ماتَ على جلجلةِ الأوطانِ قامْ
لم تَمُتْ هذي العصافير على التلِّ
ولا ماتَ الحمامْ
أنتَ أسلمتَ إلى التلِّ يديكْ
فانحنى
حتّى دنا من مُقْلتيكْ
ثُمَّ غَطّى وجهَكَ المحروس بالرملِ
قليلاً كي تنامْ

* * *

قُمْ تأمّلْ
يرفعُ الله غطاء اللّيلِ عن وجهِ القُرى
كُلَّ صباحْ
كي ترى
أنّ الأقاحْ
موغلٌ في الصخرِ
أنّ الصخرَ دمعٌ وابتسامْ
كلَّ عامٍ
يسقطُ الثلجُ على الأرضِ
ويجري
في ميازيبِ القُرى
دمعُ الغمامْ
كُلَّ عامٍ
تنحني فوقَ الرخامْ
وردةٌ تفتح جرحاً في الرخامْ
يا صديقي
هكذا صلّى وصامْ
جدُّنا المحنيّ في أضلاعنا
حتّى العظامْ
يا صديقي
إنّما الجرحُ انسجامْ
ويد الآسي على الجرحِ انسجامْ
فتقدَّمْ
مثلما أنتَ
ومُدَّ الآنَ كفَّكْ
إنّ قلبي موجَعٌ حتّى الجمامْ
أوجعته طفلة الرمّانِ
والرمّان دارْ
ودمٌ يبتلُّ في أغصانِهِ
والأرضُ دارْ
كلّما دارت على الرمّانِ أوجاع القُرى
شطَّ المزارْ

. . . .

. . . . . .

هكذا كانَ
وماذا كانَ؟
وليبدأْ من الصفرِ الكلامْ

كانَ يا ما كانَ
من عشرينَ عامْ
قريةٌ
أجملُ من مليونِ عامْ
ينحني بين يديها النَّهرُ
والريحانُ يهديها السلامْ
وهي أدنى من قطيعِ الغيمِ أمتاراً
وأعلى في المقامْ
من مدينَهْ

كانَ فلاّحونَ
مشدودون للطين
وفي الطينِ الثقيلْ
أبدعوا بالمعولِ الصلبِ
زمانَ المستحيلْ

. . . .

. . . . . .

آهِ
سبحانَ الذي أعطى
لهذا الطين قلبَهْ
وكساهُ ريشَهُ الضوئيَّ
فالطينُ يمامْ
جاء صيّادٌ
رمى عندَ الظلامْ
طلقةً
فاهتزَّ قلبُ الليل.
صيّادونَ في الوادي
وذئبٌ في الحقولْ
والشجيراتُ على السَفْحِ
يُعرّيها الذهولْ

طار عصفور من الضوء
إلى التلِّ وعادْ
ريشُهُ في الرِّيحِ أحياناً
وحيناً في الرمادْ.

* * *

يا صبايا قريةِ الرمّانِ
شيّعنَ القتيلْ
وانتشلْنَ الماءَ من آبارِهِ
حتَّى السماءْ
وتَخَضَّبْـنَ،
تَخَضَّبْـنَ له عند الأصيْل
جرحُهُ كان لنا خبزاً وماءْ

* * *

يا صبايا قريةِ الرمّانِ
قد طالَ المطالْ
وهمو قد سافروا بعد الغروبْ
أوغلوا في البَيْنِ
لا ريحُ الشمالْ
سوفَ تأتينا بهم يوماً
ولا ريحُ الجنوبْ.

* * *

. . . . .

. . . . . .

قُمْ تأمّلْ
أكَملتْ دورتَكَ الأرضُ
ومالت للأفُولْ
شمسُهُمْ في آخرِ الدنيا
وكانت في يديكْ
صحتُ لـمَّا غرّبوا:
قلبي عليك
أيُّها الأخضرُ مثل الشَجَراتْ
أيُّها التبغُ الذي يحضُنُ نارَه
أنتَ أدرى كيف تشتقُّ المحارَهْ
من ثقوبِ الطينةِ العمياءِ
وجهاً للحياةْ
أنتَ أدرى
كيف أنّ الظلماتْ
تنتهي في الشمسِ
كيف الصَبَواتْ
عرقُها في القلب يمتدّ
وعرقٌ في الفصول

. . . . .

يا فتى الرمّانِ
قد طالَ الرحيلْ
فلماذا
أيُّها السرُّ الجنوبيُّ الجميلْ
بدّدَتْكَ الطلقاتْ
أبدعَتْكَ الطلقاتْ
بدّدتكَ الطلقاتْ
أبدعتكَ الطلقاتْ
أبدعتكَ الطلقاتْ.